الخـــوارج

ظهرت الخلافات السياسة الحادة فى الإسلام بعد سنوات قليلة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ووضعت فى قالب تنظيمى اتخذ شكل الفرق التى تسترت بارتداء عباءة الدين لتجد لنفسها مكانا فى لحظات تاريخية هامة كان الصراع فيها على السلطة وأحقية الحكم ونوعيته أيضا.

تسلل هؤلاء فى فجوات زمنية مؤلمة امتلأت بدماء المسلمين وأجسادهم الممزقة التى خلفت أحداثا جساماً وخلافات حادة بدأت بعد مقتل خليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان وتولى الإمام على بن أبى طالب لتبدأ الفتنة وتسيل الدماء وتولد الأفكار شديدة التطرف التى عانى منها المسلمون ومازالوا يعانون منها حتى الآن بعد مولد "الخوارج" فى تلك الأيام الصعبة لتعلو أفكارهم فترات وتخبو فترات لتترك بيننا وحتى الآن، فكر الجماعات التكفيرية التى تبيح دماء من يخالفهم ولينشأ معهم مفهوم الهجرة من دار الكفر وإباحة دماء المسلمين.

تجاوز المسلمون محنة سقيفة بنى ساعدة وتولى الخلافة أبوبكر الصديق الذى أوصى بعمر بن الخطاب من بعده ليترك الخليفة الثانى الأمر من بعده بين ستة من الصحابة ليتم اختيار عثمان بن عفان من بنى أمية والذى يعد وصوله إلى الخلافة مقدمة لاستيلاء بنى أمية فيما بعد على الحكم.

فما إن تولى سيدنا عثمان إمارة المسلمين حتى اتخذ من ابن عمه مروان بن الحكم كاتبا له فى المدينة وترك له الحق فى التصرف كما يشاء فى أمور الحكم فما كان من مروان إلا أن منح أقاربه من بنى أمية الولايات فى البلدان التى فتحت وانتشر بها الإسلام ليصل بعد ذلك الأمر إلى حد الصراع على السلطة التى لابد أن يرافقها المال وقد تحقق ذلك بعد أن استولى ولاة بنى أمية على الأموال التى كانت

من نصيب الجيش والتى غنمها فى حروبه لتوضع تحت يد الإداريين والولاة وأصبحت أموال الخراج والفىء فى يد الولاة تحت مسمى «بيت المال».

وأثارت تلك الرفاهية مجلس شورى الخلافة وكانوا خمسة هم على بن أبى طالب، وعبدالرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيدالله، والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ولم يتراجع سيدنا عثمان عن موقفه من ولاته مما دفع الصحابى أبا ذر الغفارى إلى دعوة الناس إلى الزهد ونهاهم عن اقتناء الأموال وناشد الأغنياء أن يمنحوا أموالهم إلى الفقراء وظل سيدنا عثمان يرى أن مايصل إليه عن ظلم ولاة بنى أمية هو من قبيل الوشايات وأن كل مايقال كذب حتى حدثت ثورة أهل مصر كرد فعل على تصرفات عبدالله بن سعيد بن أبى السرح والى مصر الذى ولاّه عليها بعد أن عزل عمرو بن العاص الذى لم يتقبل الأمر إنما أخذ يؤلب عليه الصحابة وحجاج البيت الحرام حتى قيل إن عمرو بن العاص يحرض عليه جميع الناس حتى الراعى فى غنمه على رأس الجبل.

ولم تمر تلك الأحداث مرورا عابرا بل علقت فى نفوس الناس ومن قبلهم الصحابة مرارة لما تسبب فيه عثمان بن عفان بلينه وتهاونه مع ولاته الأمويين.

واقتربت النهاية بعد أن ثار أهل مصر وشكوا إليه ثم ذهبوا وعادوا إليه مرة أخرى وهم يحملون خطابا موقعا بخاتمه يأمر فيه واليه أن يقتلهم ويصلبهم ويجلدهم ويحبسهم فأقسم الخليفة عثمان بن عفان بأنه لم يكتبه ولم يمله ولم يأمر به ولا يعلم عنه شيئا..

فقالوا له .. إنهم وجدوه مع غلامه .. وعلى جمله.. وبخط كاتبه وعليه خاتمه..؟!

فأجابهم مرة أخرى.. بأنه لا يعلم عن هذا الخطاب شيئا فقالوا له.. أيجترئ عليك.. فيبعث غلامك على جملك وينقش على خاتمك ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام فإما أن تكون ضعيفا مغلوبا أو غافلا لا يصح أن تتولى أمور المسلمين.

وطالبوه بأن يترك الخلافة لمن هو أقدر على إدارة شئون المسلمين وجاء رده

واضحا.. حاسما..

لست خالعا قميصا ألبسنيه الله عز وجل.. تمسك سيدنا عثمان بالسلطة ويئس الصحابة من الوصول إلى حل.. وزاد تذمر الناس حتى وقعت الكارثة.. وقتل عثمان بن عفان.. لتبدأ مرحلة جديدة مليئة بالآلام والأحزان فى تاريخ المسلمين.

وتولى الإمام على بن أبى طالب الخلافة.. ليصل إلى الحكم ويرث الأزمات التى تولد عنها المزيد من الأزمات والمآسى..

وارتبط به أن وصوله إلى الحكم جاء بعد الثورة ضد عثمان بن عفان وقتله وتلقيه للبيعة فى المسجد بعد خمسة أيام من مقتل سيدنا عثمان.

وكانت مأساة مقتل عثمان بن عفان البداية التى مرت منها كل المحن التى عانى منها المسلمون ومازالوا يعانون منها حتى الآن.. فما إن تمت البيعة للإمام على حتى خرج عليه اثنان من كبار الصحابة وهما الزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله وتعدى الأمر إلى إلقاء الاتهام المباشر على الإمام على بأنه هو المستفيد الوحيد من مقتل عثمان بن عفان وتركا المدينة وتوجها إلى مكة وهناك التقيا السيدة عائشة زوجة الرسول ﷺ أم المؤمنين وكانت قد لجأت إلى مكة لتعلن أنها بريئة من دم عثمان.. ليعلن الثلاثة الثورة على الإمام على ونادوا بالثأر من الخليفة الجديد لمقتل الخليفة المقتول.

وقد يستطيع التاريخ أن يحفظ لنا ماحدث إلى حد ما ولكن العقل يقف عاجزا عن إيجاد مبررات واضحة لحقيقة خروج الثلاثة على الإمام على فى ذلك الوقت الحرج الذى كان يتهدد الأمة الإسلامية اليافعة، بالاقتتال بين كبار الصحابة وبينهم زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وماتبع ذلك من إعلان الثورة والخروج إلى ساحات القتال والمعارك وخرج الثوار من مكة متجهين إلى البصرة واستولوا عليها واستقروا بها وحدث تحول آخر فى تاريخ الإسلام مواكبا للأحداث السابقة فلقد قرر (الإمام على) الخروج من المدينة مقر الحكم والاتجاه إلى الكوفة لتكون المقر الجديد لحكمه بمعاونة مالك بن الأشتر القائد العسكرى القوى الذى قاد جيش الإمام على ليلتقى بجيش الثوار على مقربة من البصرة فى موقعة «الجمل» نسبة

إلى جمل السيدة عائشة وقتل فى الأحداث التى أسالت دماء المسلمين أنهاراً طلحة والزبير وانسحبت السيدة عائشة بعد أن حرص الإمام على أن لا تتعرض لأى أذى. لتبدأ بعد ذلك فصول أكثر دموية وحروب ومعارك راح ضحيتها آلاف المسلمين وخاصة بعد أن بدأت ملامح فرقة الخوارج فى الوضوح ليعانى منها مسلمو ذلك الزمان ولتعيش أفكارهم التحريضية والتكفيرية ليعانى منها مسلمو العصر الحالى.

لم تنته أزمات الإمام على بانتصاره فى موقعة الجمل ولكنها كانت بداية المزيد من المعارك .. فلقد كان هناك لاعب أساسى.. شديد الذكاء والدهاء طموحه لا يقف عند حد ومبرره جاهز هو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والى الشام وأحد أقارب عثمان بن عفان ورغم أنه لم يكن له حق فى الخلافة وظل واليا على الشام بعد مقتل عثمان بن عفان لكن بعد تطور الأمور وشعار الفتنة الذى رفعه الصحابة لمحاربة الإمام على "الثأر لعثمان" وجد معاوية نفسه أحق بذلك الشعار وخرج بجيشه المكون من أهل الشام للقاء الإمام على عند «صفين» التى تقع شمال سوريا على شاطئ الفرات والتقى الجيشان وسالت دماء المسلمين وبدت أمارات الهزيمة على جيش معاوية وأصبح النصر قريبا من الإمام على وهنا لجأ معاوية إلى الحيلة فرفع جنوده المصاحف على أسنة الرماح دلالة على تحكيم كتاب الله فى الحرب الدائرة.

وكانت النتيجة تغيراً كاملاً فى مسار المعركة التى كادت تحسم لصالح الإمام على بعد أن وصلت الرسالة إلى العراقيين الذين كانوا يحاربون فى جيش الإمام على باللجوء إلى الله.

ومن هنا بدأ «الخوارج» فى الظهور فموقعة صفين كانت بداية لظهور أعظم خدعة فى تاريخ الإسلام السياسى والمسلمين عامة.. ومقدمة لظهور الخوارج كفرقة تكفيرية كان الرسول صلى الله عليه وسلم قال عنهم «تحقر صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم وصوم أحدكم فى جنب صيامهم ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم».

وقال عنهم صلى الله عليه وسلم وماكان ينطق إلا بالوحى: "سيخرج من ضئضئى هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية".

واقترح معاوية على الإمام على أن يحتكما إلى حكمين يلجآن إلى كتاب الله لحسم الخلاف فى قضية مقتل عثمان بن عفان والقصاص من قتلته وكان الإمام على رافضا لفكرة التحكيم وميالا إلى الحسم فى ميدان القتال وكان يوافقه فى ذلك قائده مالك بن الأشتر الذى كان يرى فى التحكيم خدعة ما وفجأة تغير الموقف.. فلقد «خرج» من جيش الإمام على من يطالبه بقبول التحكيم واجتمع الأشعث بن قيس الكندى ومسعد بن مذكى التميمى، وزيد بن حصين الطامى وقالوا للإمام على «القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف»!!

فقال لهم.. أنا أعلم بما فى كتاب الله.. انفروا إلى بقية الأحزاب.. "نفروا إلى من يقول.. كذب الله ورسوله.. وأنتم تقولون صدق الله ورسوله.. فقالوا.. لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان!!"

وإذا صحت تلك الرواية فهى تعنى مسئولية «الخوارج» عن مقتل سيدنا عثمان ورضخ الإمام على لمطلبهم «وقبل التحكيم»..

واختاروا أبوموسى الأشعرى أقدم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد أشهر قضاة العرب وكان الرسول قد عينه واليا على عدن وولاه عمر بن الخطاب على الكوفة والبصرة وظل بهما حتى عزله عثمان فأقام بالكوفة حتى أصبح واليا عليها بعد أن طالب أهلها عثمان بتوليته عليهم.. فاستجاب لهم رغما عنه.

وتم تحديد مكان اجتماع الحكمين «بدومة الجندل» ووضعت بنود وثيقة تحدد منهج التحكيم وسارت لعبة التحكيم فى مسارها الذى وضعه لها معاوية وخطط له بدهاء عمرو بن العاص لتتحول القضية من مقتل عثمان والقصاص من قاتليه إلى قضية الخلافة التى لم يكن لمعاوية الحق فيها منذ البداية.. لينتهى التحكيم بعد مداولات طويلة بخلع الإمام على ومعاوية وترك الأمر للأمة لاختيار الخليفة الذى تراه مناسبا.. ووافق أبو موسى الأشعرى على ذلك الرأى وأقر به أولا.. وهنا جاء الدور على عمر بن العاص ليخلع هو أيضا معاوية حسب الاتفاق وفجر ابن العاص المفاجأة التى مازالت أصداؤها تتردد حتى يومنا هذا حين قال.. وهو يشير إلى الأشعرى.. إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه.. وأنا أخلع صاحبه وأثبت

صاحبى «معاوية».

ولم يكن موقف ابن العاص آخر المفاجآت وإنما كان أولها وأصبح الموقف عبئا "فالإمام على" الخليفة الشرعى أصبح مخلوعا، ومن لم يكن له حق فى الخلافة أصبح حاكما.. وفى غمار كل تلك الأحداث غير المعقولة فى بدايات التاريخ الإسلامى ظهر الخوارج كقوة هائلة أثرت بشدة فى مجرى الأحداث فى تلك الأيام وفى الأيام التى بعدها وحتى أيامنا هذه..

ورفض الإمام على التحكيم وعلا صوت الخوارج.. واجتمعوا عليه وقالوا له.. لم حكّمت الرجال؟ "لا حكم إلا لله".

وكانت تلك الصيحة من العجائب فهم الذين أجبروا الإمام على.. على التحكيم ثم عادوا ولاموه لأنه قبله.. وتجمع الخوارج من جيش الإمام على، حتى وصل عددهم إلى إثنى عشر ألف رجل. مرددين كلماتهم الشهيرة لا حكم إلا لله ورد الإمام على بمقولته المشهورة "كلمة حق يراد بها باطل، وإنما مذهبهم ألا يكون أمير .. ولابد من أمير .. برا كان أو فاجرا".

وتجمع على رأس الخوارج قادتهم عبدالله بن الكواء كبيرهم، وعناب بن الأعور، وعبدالله بن وهب الراسبى الذى سيصبح فيما بعد أول زعيم لهم، وعروة بن جرير، ويزيد بن أبى عاصم المحاربى.. وحرقوص بن زهير البجلى المعروف بذى الثرية.. واتجه جيش الخوارج إلى «حروراء» القريبة من الكوفة.. وخرج وراءهم الإمام على يريد أن يردهم إلى صوابهم ويصلح من أحوالهم فوقف بينهم ويقال إنه اتكأ على قوسه.. وقال لهم.. أناشدكم الله هل علمتم أحدا كان أكره للحكومة منى؟ قالوا له.. اللهم لا..

قال .. أفعلمتم أنكم أكرهتمونى عليها حتى قبلتها؟

قالوا.. اللهم نعم

قال.. فعلام خالفتمونى ونابزتمونى؟

قالوا«إنا أتينا ذنبا عظيما فتبنا إلى الله منه».

وتغلب عليهم الإمام على بقوة الحجة ومنطق الحوار فانحاز إلى جانبه عدد كبير

منهم وعادوا معه إلى الكوفة.. ولكن سرعان ما انقلبوا عليه مرة ثانية وأعلنوا الخروج عليه.. فأرسل الإمام على إليهم ابن عباس يحاورهم ويحادثهم ويمنع وقوع الفتنة بين المسلمين ولكنهم رفضوا أن يستمعوا إليه وأعلنوا الخروج الثانى الذى لا رجعة فيه وبايعوا عبدالله بن وهب الراسبى ليكون أول زعيم للخوارج.. واجتذبوا إليهم الكثيرين من معارضى الإمام على وصاروا قاصدين مدينة النهروان وفى أثناء الطريق إليها ارتكب الخوارج أولى حوادثهم الدموية التى لم تدع مجالا للشك فى انحراف أفكارهم وفساد نفوسهم رغم ماكانوا يبدونه من الإخلاص الشديد فى تأدية الفروض والعبادات فلقد حملوا كل المتناقضات من تقوى وورع فى الدين إلى هوس وتعصب وسذاجة وضيق فى العقل والفكر وخشونة وقسوة اكتسبوها من حياة البادية حتى إن عبدالله بن عباس عندما ذهب إليهم قبل خروجهم ليعيدهم إلى جادة الصواب فرأى بعضهم وقد تقرحت جباههم لطول السجود ورغم كل هذا السجود وأداء العبادات إلا أنهم ارتكبوا جريمة بشعة افتتحوا بها خروجهم على الإمام على فالتقوا فى طريقهم برجل يحمل المصحف فى رقبته وعندما رآهم توجس منهم خيفة وابتعد عنهم مسرعا.. فطاردوه حتى لحقوا به.. وأحاطوه وسألوه.. عمن يكون؟

فقال لهم أنا عبدالله بن خباب بن الأرت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم فقالوا له.. ماذا تقول فى أبى بكر وعمر؟ فأثنى عليهما بالخير

فقالوا له وماذا تقول عن عثمان فى السنوات الست لخلافته!! فأثنى عليه بالخير فسألوه عن على قبل التحكيم .. فأثنى عليه بالخير.. فقالوا له وماذا عنه بعد التحكيم!!

فأجابهم: إن علياً أعلم بكتاب الله منكم، وأشد توقيا إلى دينه وأنفذ بصيرة..

فقالوا له إنك لست تتبع الرجال على أسمائهم وإن الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك.. فأمسكوا به ووضعوا رأسه على حافة النهر وذبحوه حتى ملأ دمه النهر ثم دخلوا منزله وكان فى القرية التى قتلوه أمامها فقتلوا ولده وزوجته وكانت حاملا.. ثم أثناء خروجهم أرادوا شراء تمر نخلة من رجل مسيحى فسألوه عن ثمنها.. فخاف منهم الرجل وقال لهم هى لكم فرفضوا وأصروا على دفع الثمن.. فقال

الرجل ما أعجب هذا؟! أتقتلون مثل عبدالله بن خباب ولا تقبلوا منا نخلة!!

ووصلوا إلى مدينة النهروان وكانت أخبار جريمتهم البشعة قد وصلت إلى الإمام على فسار إليهم ومعه أربعة آلاف رجل وعندما اقترب منهم أرسل إليهم وطلب منهم أن يسلموه قاتل عبدالله بن خباب.. فقالوا له كلنا قتله ولئن ظفرنا بك قتلناك وعرف الإمام على أن قتالهم أصبح أمرا حتميا فأقبل عليهم واستعدوا هم له ولكنه أراد رضوان الله عليه أن يستنفد كل الوسائل قبل أن يحاربهم فسألهم قبل أن يبدأ القتال ماذا نقمتم منى؟ فقالوا له أول مانقمنا منك أننا قاتلنا بين يديك يوم الجمل، فلما انهزم أصحاب الجمل أبيحت لنا ماوجدنا فى عسكرهم من المال ومنعتنا من سبى نسائهم وذراريهم.. فكيف استحللت مالهم دون النساء والذرية؟

فقال لهم.. إنما أبحت لكم أموالهم بدلا عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة قبل قدومى عليهم، والنساء والذرية لم يقاتلونا.. وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام.. ولا يجوز استرقاق من لم يكفر.. وبعد، وألقى إليهم رضى الله عنه سؤالا عجزوا عن الرد عليه..

فقال لهم: لو أبحت لكم النساء.. أيكم يأخذ عائشة فى سهمه؟ فخجلوا ولم يجاوبوا..

ولكنهم لم يتنازلوا عن ضيق أفقهم فعادوا وقالوا له.. نقمنا عليك محو إمرة أمير المؤمنين على اسمك فى الكتاب بينك وبين معاوية لما نازعك معاوية فى ذلك

فأجابهم فعلت مثل مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية حين قال له سهيل بن عمرو.. لو علمت أنك رسول الله لما نازعتك ولكن اكتب باسمك واسم أبيك فكتب «هذا ماصالح عليه محمد بن عبدالله وسهيل بن عمرو» وأخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لى منهم يوما مثل ذلك .. فكانت قصتى فى هذا مع الأبناء.. قصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الآباء.

وقالوا له.. فلم قلت للحكمين.. إن كنت أهلا للخلافة فأثبتانى.. فإن كنت فى شك من خلافتك.. فغيرك بالشك فيك أولى..!!

فقال لهم.. إنما أردت بذلك النصفة من معاوية، ولو قلت للحكمين أحكما لى

بالخلافة لم يرض بذلك معاوية وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم نصارى نجران إلى المباهلة وقال لهم "تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفُسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين" آل عمران٦١ .

فأنصفهم بذلك نفسه.. فلم يلعنهم ولذلك أنصفت أنا معاوية من نفسى ولم أدر غدر عمرو بن العاص.

ولم يتراجعوا واستمروا فى جدلهم فقالوا له: فلم حكمت الحكمين فى حق كان لك؟

فقال.. وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكّم سعد بن معاذ فى بنى قريظة "وكان سعد قد شهد الخندق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابه سهم وكانت غزوة بنى قريظة عقب الخندق وفيها نزل يهود بنى قريظة على حكم سعد بعد حصار دام خمسة وعشرين يوما وحكم بقتل عدد من رجالهم المقاتلين وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد حين حكم القد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة ولو شاء لم يفعل وأقمت أنا أيضا حكما لكن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حكم بالعدل وحكمى خُدع حتى كان من الأمر ماكان فهل عندكم شىء غير هذا؟

وذهل كثير منهم من قوة وبلاغة وحجة الإمام على وقال كثير منهم صدق والله وصاحوا وهم يطلبون التوبة وكان عددهم حوالى ثمانية آلاف رجل.. وظل أربعة آلاف على معتقداتهم من تكفير الإمام على ومن قبله عثمان بن عفان وأصحاب الجمل ومعاوية وأصحابه والحكمين ومن رضى بالتحكيم وزادوا على هذا تكفير مرتكب الكبيرة والذنب والمعصية.

وقبل أن يبدأ القتال خرج حرقوص بن زهير إلى الإمام على وقال له.. يا ابن أبى طالب، لا نريد بقتالك إلا وجه الله والدار الآخرة فقال له على، بل مثلكم كما قال الله عز وجل قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً" (الكهف ١٠٣ : ١٠٤)

وأكمل حديثه.. أنت منهم ورب الكعبة.. وقاتل الإمام على مع أصحابه من تبقى

منهم بزعامة عبدالله بن وهب الراسبى وحرقوص بن زهير البجلى وقال على لأصحابه قاتلوهم فوالذى نفسى بيده لا يقتل منا عشرة ولا ينجو منهم عشرة وتحقق ماقاله على بن أبى طالب فقتل من أصحابه تسعة وتبقى من الخوارج تسعة فروا هاربين بعد مقتل زعمائهم.. وتفرقوا فذهب اثنان منهم إلى سبجستان ومن أتباعهما ظهر خوارج نهجستان.. ووصل رجلان إلى اليمن واثنان إلى عمان.. واثنان إلى الجزيرة.. وواحد منهم فر إلى تل مؤمن.

ورغم ماحققه الإمام على من نصر على الخوارج فى النهروان وفروا التسعة الذين سيؤسسون فيما بعد فرق الخوارج التى ستخوض قتالا دمويا وحروبا كثيرة مع الولاة إلا إن الإمام علياً كان يعانى وبشدة من حرب الخوارج فى العراق وموقف أهل البصرة المتخاذل وتردد أهل الكوفة وقوة معاوية فى الشام وأهلها الذين يناصرونه بقوة ويتحدون معه مما قوى موقفه.

ازدادت أزمات الإمام على بعد أن انشق عليه الخريت بن راشد أحد قواده وكان من قبيلة ناجية وبلاده البحرين قاتل مع الإمام علياً فى الحروب التى خاضها فى الجمل، وصفين والنهروان .. ورأى أن الإمام علياً كان لابد أن يقبل برأى التحكيم وأن يترك الخلافة ليختار المسلمون خليفتهم بالشورى بينهم وعندما أدرك أن الإمام علياً لن يتنازل عن الخلافة ولن يعود عن رأيه الذى اتخذه بأنه ليس هناك خليفة غيره دب الخلاف بينهما واعتبر الإمام على أن موقف الخريت انحياز لمعاوية فأعلن الخريت العداء الواضح للإمام علياً وجمع من حوله الرجال المؤيدين له وانضم إليه الكثيرون وخرج يقصد الأهواز ليجعل منها قاعدة لقتال الإمام على.. ولكن لحق به جيش الإمام على وهزمه فعاد الخريت إلى البحرين واجتمع بالخوارج وأعلن أمامهم أنه منهم حتى قتل ولكنه بفتنته ترك أثرا هاما إذ انقلب عرب البحرين عن دفع الخراج وصدقة المال وظلت الأحوال لا تنذر بالهدوء أمام حكم الإمام على حتى انتهى الأمر بمأساة مريعة بعد أن نجح عبدالرحمن بن ملجم المرادى النجوبى الذى ينتمى إلى الخوارج فى الهجوم على الإمام على بمسجد الكوفة وطعنه فى يوم الجمعة ١٥ رمضان عام٤٠هـ ليتوفى الإمام على يوم الأحد ليترك خلفه ميراثا

ثقيلا.. فهو كان آخر من حصل على البيعة الشرعية وحدثت فى عهده الحوادث الجسام التى مازال المسلمون يعانون منها حتى وقتنا الحاضر .. وكان الخوارج أحد نتاج تلك الأحداث.

مر الخوارج بمراحل كثيرة ومتعددة حتى اتضحت معالم اتجاهاتهم الفكرية.. فهم ومنذ البداية يعتبرون حركة سياسية ثورية يعد الطابع الدينى سمة تميزهم عن غيرهم فحركتهم السياسية تحركت تحت انتمائهم الدينى وتعد مرحلة صراعهم مع الإمام على هى المرحلة الأولى التى أفرزتهم ومهدت لظهورهم بعد ذلك بشكل أكثر تنظيما وكان من ضمن الأسماء التى حملوها الخوارج «والحرورية» نسبة إلى «حروراء» القرية التى نزلوا بها أول خروجهم على الإمام على وحملوا أيضا لقب «الشراة» وزعموا أنهم باعوا أنفسهم إلى الله وأن مصيرهم الجنة وسموا «بالمحكمة» لإنكارهم الحكمين وقولهم «لاحكم إلا لله» وهى الكلمات التى ألقوها فى وجه الإمام على وطلبوا منه أن ينكص عهده وهى أيضا كانت اللبنة الأساسية التى صاغوا تحتها فكرهم التكفيرى وقد يكون الحوار الذى دار بين رجال الخوارج والإمام على وذكره الإمام الطبرى موضحا لطبيعة الخلاف وبداية نشأة الفكر التكفيرى.

وقيل لعلى بعد ماكتب فى الصحيفة إن الأشتر لا يقر بما فى الصحيفة ولايرى إلا قتال القوم.. قال على وأنا والله مارضيت ولا أحببت أن ترضوا فإذا أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت.. فإذا رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا.. ولا التبديل بعد الإقرار، إلا أن يعصى الله عز وجل ويتعدى كتابه»

وقيل أيضا.. إن عليا عندما أراد أن يبعث أبا موسى الأشعرى للتحكيم أتاه رجلان من الخوارج وهما زرعة بن البرة الطائى وحرقوص بن زهير السعدى وقالا له «لاحكم إلا لله» فأجابهما على.. بنفس ماقالاه فقال له حرقوص تب عن خطيئتك وارجع عن قضيتك، واخرج بنا إلى عدونا فقاتلهم حتى نلقى ربنا فقال لهم على "قد أردتكم على ذلك فعصيتمونى، وقد كتبنا بيننا وبينهم كتابا وشرطنا شروطا وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا" وقد قال الله عز وجل.

"وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ" النحل ٩١.

فقال له حرقوص .. ذلك ذنب ينبغى أن نتوب عنه فقال على ماهو ذنب ولكنه عجز عن الرأى وضعف من الفعل وقد تقدمت إليكم فيما كان منه ونهيتكم عنه.

وقد مر الخوارج بمرحلتين كانت المرحلة الأولى التى كانوا فيها جزءا من أحداث معارك الجمل وصفين وأزمة التحكيم وموقعة النهروان ثم قتالهم وتفرقهم حاملين معهم مبادئهم وأفكارهم السياسية، فقد كانوا يرون أن الخلافة لا يجب أن تنحصر فى قوم بعينهم وأن لا تقتصر على قريش فقط بل هى حق لأى مسلم إذا توافرت لديه مقومات الحاكم العادل بشروط العلم والإيمان والاستقامة وأن تتم البيعة له واختياره اختياراً حرا وسواء كان عربيا أو فارسيا أو تركيا كما أن الحاكم لديهم يجوز أن يكون حرا أو عبدا فالمهم أن يكون عادلا ويتم اختياره اختيارا حرا من قبل المسلمين.. وإذا كان فكرهم قد اقتصر على ذلك الرأى فهو يبدو فيه كثير من روح العدالة وذا عقلية ثورية متفتحة تبحث عن الأفضل للمحكومين، أما الأمر فلم يقتصر لديهم على تلك المواصفات بل تعدى الأمر أنه فى حالة اختيار الحاكم ثم عدل عن الحق أو العدل فوجب عزله بل وقتله.. ثم ظهر التطرف بوضوح شديد فى أفكارهم عندما قاموا بتكفير عثمان بن عفان من أجل ما أحيط بفترة حكمه من أزمات حول فساد الولاة ومنحه المناصب لأقاربه ثم اتهامهم له بأنه أتلف نسخ القرآن المختلفة وكفّروا عليا لأنه فى رأيهم ترك حكم الله ورضى بحكم الرجال ولأنه قاتل الفالتين والفاسقين والمارقين.. وما اغتنم أموالهم ولا سبى نساءهم وأولادهم.

وكان مقتل الإمام علىّ الرجل الوحيد القادر على القضاء على الخوارج بداية لاتساع نشاطهم وإثارتهم للرعب والفزع بعد أن اتخذوا من حرب الوصايا وسيلة لتحقيق أهدافهم وإثارة المتاعب لمعاوية وزادتهم تلك الحروب صلابة وقوة وأظهرت قدراتهم القتالية وتمسكهم بمعتقداتهم وآرائهم التى لم يتنازلوا عنها أبدا.. حتى بعد وفاة يزيد بن معاوية وذهابهم إلى عبدالله بن الزبير بن العوام الذى كان وقتها قاب قوسين أو أدنى من تولى خلافة المسلمين ولم يترك الخوارج الأمور تخرج عن سيطرتهم.. فقد ذهبوا إليه وألقوا إليه تهديدا واضحا بعد أن حاوروه واشترطوا

عليه أن يعتنق ما يؤمنون به حتى يبايعوه ويمهدوا له الأمر وإن خالفهم فلن يحصل على مبتغاه ودار بينه وبينهم حوار أظهروا فيه ما ينووبه.. واتسم الحوار بوضوح أفكارهم وتمسكهم بمبادئهم التى خرجوا عليها فقالوا له: «إنا جئناك لتخبرنا رأيك، فإن كنت على صواب بايعناك وإن كنت على خلافه دعوناك إلى الحق»..

فماذا تقول فى الشيخين؟

فرد عليهم: خيرا..

فقالوا: فما تقول فى عثمان الذى حمى الحمى وآوى الطريد، وكانوا يقصدون بالطريد الحكم بن أبى العاص وكان رسول الله(صلى الله عليه وسلم) قد نفاه إلى الطائف وظل فى منفاه أيام خلافة أبى بكر وعمر بن الخطاب حتى آواه عثمان، وأضافوا: وأظهر لأهل مصر شيئا وكتب بخلافه، وكانوا يعنون بذلك قصة الرسالة التى كانت مع غلامه والتى قال عنها عثمان بن عفان إنه لا يعلم عنها شيئا، وأضافوا أيضا وهم يقصدون تعديد أخطاء سيدنا عثمان: وماذا تقول عنه عندما أوطأ آل بنى معيط رقاب الناس وآثرهم بفىء المسلمين.. وكان الخوارج يرددون أن قصة آل معيط من أسباب تكفيرهم لسيدنا عثمان رضى الله عنه وكان قد ولى الوليد بن عقبة بن أبى معيط الكوفة وكان من أقاربه.. وفى إحدى المرات احتسى الخمر حتى لعبت برأسه وسكر منها وصلى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات وقرأ فى صلاته بيتا من الشعر.

ثم تطرقوا بعد كل ما ذكروه إلى الحديث عن على بن أبى طالب وقالوا عنه وحتى الذى بعده أى (على) الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم.

ولم يقتصر الأمر على خلافهم مع سيدنا عثمان وسيدنا على بل وزادوا وهم يوجهون حديثهم إلى عبدالله بن الزبير: وما قولك فى أبيك وصاحبه ويقصدون طلحة بن عبيد الله وقد بايعا عليا وهو إمام عادل لم يظهر منه كفر ثم نكصا بيعته وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن وكان لك فى ذلك ما يدعوك إلى التوبة فإن أنت قبلت كل ما نقول لك.. فلك الزلفى عند الله

والنصر على أيدينا إن شاء الله، ونسأل الله لك التوفيق وإن أبيت خذلك الله وانتصر منك بأيدينا)..

وكانوا بموقفهم هذا لا يرغبون فى حوار حقيقى وإنما كانوا يريدونه منفذا لأفكارهم ومؤيدا لهم فى تكفير عثمان وعلى بعد التحكيم ويكفرون الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله إلى جانب موقفهم الواضح من السيدة عائشة ولم يستغرق الأمر من عبدالله بن الزبير طويلا حتى أعلن لهم رفضه آراءهم وتكفيرهم عثمان وعلى والزبير وطلحة والسيدة عائشة وخاطبهم برقة وهدوء وهو يذكرهم بأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه موسى بمخاطبة فرعون برقة عندما أوصاه وقال تعالى (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه٤٣ - ٤٤) وذكرهم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم وبوصيته (لا تؤذوا الأحياء بسبب الموتى) وأنه نهى عن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه رغم ما كان عليه أبوجهل من عداء للرسول وما سببه له من أذى أما عن أبيه وصاحبه فقد قال لهم: «وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سببتم فيه طلحة وأبى أن تقولوا «أنبرأ من الظالمين» فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس.. وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسب أبى وصاحبه وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن فى حق أبويه «وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي» (لقمان ١٥)

وجاء حديث عبدالله مخالفا لهم ولأفكارهم فما كان منهم إلا أن تركوه يواجه الأمويين حتى قتل على أيديهم..

وانطلقوا يثيرون الفزع والرعب بين المسلمين يدعون إلى أفكارهم بالعنف وسفك الدماء واستطاعوا أن ينشئوا لهم قواعد فى حضرموت والطائف واليمن بقوة السيف وبفصاحتهم وقدرتهم على الجدل والحوار والدخول فى مناقشات لا نهائية يصمدون فيها حتى النهاية ويراوغون بثبات هائل يصيب من أمامهم بالشك والحيرة مستعينين فى ذلك بآيات من القرآن.. قاموا بتفسيرها حسب معتقداتهم ورددوها لإثبات آرائهم شديدة الحدة والتطرف فقاموا بتفسير قول الله تعالى «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين» (آل عمران ٩٧)

بأن تارك الحج كافر وإن من ترك الحج فإنه ارتكب ذنبا، وكل مرتكب للذنب كافر..

وفسروا العديد من الآيات على هذا المنوال ليؤكدوا ما قالوه عن أن مرتكب الذنب والمعصية كافر ومنها قول الله تعالى« يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» (آل عمران١٠٦) وحكموا على الفاسق بأنه لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم ولابد أن يكونوا سود الوجوه فهم من الكفرة.

وظل الخوارج على تشددهم ونشاطهم الدائم فى نشر معتقداتهم حتى ازداد عددهم وفى نفس الوقت ابتعد عنهم العامة خوفا من قسوتهم وتشددهم ولم يجعلهم يسعون إلى انتقاء من ينضم إليهم بل إنهم قبلوا كل من اعتنق أفكارهم فصاروا مع الوقت خليطا كان لابد أن يتنافر فى يوم من الأيام وهو ما حدث بالفعل وبدأت الخلافات تدب فيما بينهم حتى أصبحوا ثمانية أحزاب.. أخذ كل حزب ينشق عن الآخر ويكفره لتنشأ منها تنظيمات أخرى تحمل أسماء مختلفة فأصبح هناك الأزارقة والنجدات والبهية، والعجاردة، والتقاليد، والأباضية والصفرية وانقسم التنظيم الواحد إلى تنظيمات أصغر وظلوا هكذا حتى تلاشوا تقريبا ولم يتبق منهم من تخلى عن الفكر المتشدد وتناثروا فى أرجاء العالم الإسلامى مثل الأباضية..

كان لحركة الخوارج اليد الأولى فى إعادة العصبية والقبلية التى كبحها الإسلام وأعادوا إلى السطح مرة أخرى الصراع القبلى وأنشأوا العلاقة ما بينهم وما بين المجتمع الذى عاشوا فيه على أساس من العنف وقوة السيف وتكفير من يخالفهم فى الرأى واستحلال دمائه وكل هذا يتم وهم يقيمون الليل ويحفظون القرآن حتى أن أبوحمزة الخارجى وهو واحد منهم كان يصفهم ويقول عنهم «شباب والله مكتهلون فى شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم. أضناء عبادة، وأطلاع سهر فنظر الله إليهم فى جوف الليل محنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية من ذكر النار شهقوا شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيهم، موصول كلامهم بكلامهم، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم"

ويستمر أبوحمزة الخارجى فى وصف مدى تقوى وإيمان وورع أصحابه

واستباقهم للجهاد ورغبتهم العارمة فى الاستشهاد ولم يكن الرجل يبالغ فى تلك الأوصاف وإنما كانت كلها حقيقية بل وأكثر منها أيضا ولكنهم كانوا يريدون الوصول إلى الله فوق جثث من يخالفهم من المسلمين وهو ما أثار حيرة الناس وزعزع ثقتهم فى أمور دينهم ودنياهم فحركة الخوارج كانت فى الأصل حركة احتجاج سياسى ملتحف بعباءة الدين وبين الثنايا تختفى العداوات والعصبيات القبلية.. فقد كانوا من قبائل الربعيين وقريش ومنهم الخلفاء من المضريين وكان الربعية أقل فى المكانة من المضريين ولم ينس الخوارج أبدا الصراع القديم بينهما.. وأصبح خطر الخوارج أمرا واقعا بعد مقتل الإمام على ووصول معاوية إلى السلطة.. وما تبع ذلك من حروب خاضوها ضده وكان لابد من مجابهة الفكر بالفكر فبدأ ظهور جماعة أهل السنة ينقون أفكار الجماهير مما علق بها فعمرت المساجد بحلقات الدرس التى تولاها التابعون بدون تفرقة ما بين عرب وموال وأعاجم فأعاد ذلك ترسيخ القيم الإسلامية السليمة لدى الجماهير وخاصة بعد أن ناقض الخوارج أنفسهم فى كثير من الأمور ورأى الخوارج فى غمار تلك الأحداث بأنهم فى حاجة إلى خليفة لهم، فبعد مقتل عبدالله بن وهب الراسبى لم ينتخبوا من يخلفه خاصة بعد أن تولى الكوفة المغيرة بن شعبة الذى لم يطاردهم فقد كان يرى أنهم ماداموا يكتفون بالكلام فقط فلا خطر حقيقيا من ورائهم وكانت له مقولة شهيرة يرددها عنهم (قضى الله ألا تزالوا مختلفين، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا يختلفون)..

وأشعرتهم تلك الكلمات بأنهم تهاونوا فى حق قضيتهم مما حفزهم على ضرورة التحرك فبدأوا بأن انتخبوا لهم خليفة فاختاروا المستورد بن علقة وأعادوا تنظيم صفوفهم من أجل خوض حروبهم وعندما علم الوالى بذلك التحرك سجنهم وطاردهم حتى قتل خليفتهم الثانى الذى بالكاد بدأ طريق الخروج ضد الخطر الجديد الذى يواجههم فكريا وهو تنامى فكر أهل السنة مقابل فكرهم فما إن استعادوا توازنهم حتى انتخبوا خليفتهم الثالث حبان بن ظبيان السلمى الذى كان انتخابه فى عهد والى البصرة عبدالله بن زياد الذى أرغمهم على الخروج منها فتوجهوا إلى مكة ليناصروا عبدالله بن الزبير ثم يختلفون معه ويتركونه ليزداد

الصراع سخونة فى البصرة ليتولى قيادة الخوارج نافع بن الأزرق ويجمع من حوله المقاتلين ليخرج من البصرة بعد أن كفر أهلها وأعلن رأيه أن الله حرم على المسلم صحيح الإيمان الإقامة بين المشركين ويجب الخروج من دار الكفر إلى دار الهجرة فاختلف حتى مع بعض الخوارج ممن خالفوه الأمر وتبعه كثيرون تاركين وراءهم دار الكفر كما أسموها ليتجه إلى الأهواز لينشئ له قاعدة فيها تمتد إلى فارس وكيرمان ولقب ابن الأزرق بأمير المؤمنين وتبعه عدد من قادة الخوارج كان منهم عطية بن الأسود الحنفى، وعبدالله بن ماحوز اليمنى وكان ابن الأزرق، الذى سميت جماعته بالأزارقة فيما بعد أول انفصال عن الخوارج الأولى، كان رجلا شديد القسوة والتطرف فقال إن كل من يخالفهم من المسلمين كفار وأن من لا ينضم إليهم ويتبعهم فإن دمه ودماء نسائه وأطفاله حلال وأصروا على تكفير على بن أبى طالب ومجدوا قاتله.. وحرموا على أنفسهم الصلاة مع غيرهم من المسلمين الذين لا يتبعون أفكارهم بل وزادوا فى ذلك فحرموا الزواج منهم وأكل طعامهم ولم يرحموا أحدا حتى الأطفال فقالوا: إن أطفال من هم غير مسلمين مشركون خالدون فى النار.. ورغم كل ذلك التشدد إلا أنه عطل حدودا فى الإسلام فأسقط عقوبة الرجم على الزانى وأسقط الحد عن من قذف المحصنين من الرجال وكان رجلا كثير الشك لا يثق بأحد حتى أن من كان ينضم إليه فى دار الهجرة تاركا أرض الكفر كان يخضعه لامتحان قاس ولم يكن يقبله بسهولة.. ورغم أنهم حسب آرائهم السياسية يعطون الحق فى الخلافة للأفضل حتى لو كان عبدا أو من الموالى إلا أنه ورغم ذلك لم يكن هناك كثير من الموالى بينهم وأنهم فى واقع الأمر كانوا يرددون ذلك من أجل أن يحصلوا هم أنفسهم على الحكم لأنهم من خارج قريش وهم كانوا لا يتقبلون حتى مجرد زواج امرأة من الخوارج من أحد الموالى وقد حدثت قصة مشهورة مرتبطة بابن الأزرق عندما تزوجت امرأة يمنية تعشق فكر الخوارج من أحد الموالى وكان هو أيضا خارجيا.. ولم يمر الأمر بهدوء.. فلقد شعر أهلها بالإهانة الشديدة وعايروها وقالوا لها «فضحتنا» فحكت لزوجها ما حدث وخيرته بين أن يخرج معها إلى دار الهجرة لدى ابن الأزرق أو يخبئها فى مكان لا يصل إليه أهلها أو يطلقها.. فاختار الرجل الحل الأخير.

وخاض ابن الأزرق حروبا كثيرة مع ولاة الأمويين وكانت القلة دائما للأزارقة حتى واجههم المهلب بن أبى صفرة وكان واليا على خراسان فحشد لهم جيشا ضم آلاف المقاتلين.. وبرع ابن أبى صفرة فى قتالهم بعد أن تعمق فى فهمهم وعرف أنه على رغم قوتهم إلا أنه من السهل اختراقهم فكان قبل أن يغزوهم فى حرب يعمد إلى إنهاكهم فكريا وجعلهم يتجادلون فيما بينهم ليبذر بينهم الخلاف والشقاق عن طريق الحيلة.. خاصة بعد أن نجح فى حربهم عدة مرات وقتل نافع بن الأزرق ثم قتل خليفته عبيد الله بن ماحوز ثم انتخب الأزارقة قطرى بن الفجاءة واستمر المهلب فى قتالهم وأصبح خبيرا بهم وابتكر لهم الحيل ودس بينهم حتى فرقهم..

وسعى فى سبيل ذلك إلى الحيلة والخديعة.. ففى حربه معهم اشتكى له جنوده من أن الخوارج يطلقون عليهم سهاما مسمومة يصنعها لهم حداد منهم تصيبهم فى مقتل فتفتق ذهن ابن المهلب عن حيلة رائعة.. فأرسل رجلا من جنوده برسالة وألف درهم وطلب منه أن يتسلل إلى معسكر قطرى قائد الخوارج ويلقى الرسالة والنقود بداخله ويحرص على ألا يراه أحد وقام الرجل بالمهمة وعثر جند الخوارج على الرسالة والمال وأسرعوا بهما إلى قائدهم قطرى وكانت كلمات الرسالة موجهة إلى الحداد وتحمل كلمات «أما بعد فإن نصائحك قد وصلت إلى وقد وجهت إليك ألف دينار فاقبضها وزدنا من النصال».

فأرسل قطرى إلى الحداد واستدعاه ليسأله عن الرسالة..

فرد الرجل عليه بأنه لا يعرف عنها شيئا

فسأله عن المال..

فأجابه الحداد بأنه لا يعلم عنه شيئا..

ولم يصدق قطرى بأن الرجل لا يعلم شيئا فقتله وأثبت المهلب أنه عليم بدروب النفس البشرية.. خاصة أن الأمر لم يقف عن هذا الحد.. فعندما علم «عبدربه الصغير» مولى ابن قيس بن ثعلبة أحد أمراء الخوارج بمقتل الحداد.. ذهب إلى قطرى وقال له.. قتلت رجلا على غير ثقة ولا بينة..

فأجابه قطرى.. بأن المال دليل على الخيانة..

فقال له «عبدربه» يجوز أن أمرها كذب.. ويجوز أن تكون حقيقة..

فأجاب قطرى.. إن قتل رجل فيه صلاح أمر غير منكر وللإمام الحق أن يحكم بما يراه صالحا وليس للرعية أن تعترض عليه..

وهنا أصبح قطرى حاكما سلطويا لا يرى لأحد الحق فى أن يعقب على أحكامه حتى لو كان حكمه خاطئا.. لتبدأ من تلك الواقعة بوادر انشقاق جديد داخل الخوارج.. وإن ظل كامنا لفترة.. حتى حركه المهلب مرة أخرى فبعد أن علم المهلب بما حدث رأى أن الطريق أمامه ممهد للقضاء عليهم بمزيد من غرس بذور الخلاف وخاصة وهو يعلم طبيعتهم التى تميل إلى التطرف والسذاجة والسطحية معا.. فاستثمر المهلب واقعة الحداد ليؤجج الخلاف فيما بينهم فأرسل إليهم رجلا مسيحيا بعد أن منحه مبلغا من المال ليستدرج الخوارج إلى الخلاف.. وقال للرجل إذا رأيت زعيمهم «قطرى» فاسجد أمامه.. فإذا سألك عما تفعل فقل له.. إنك تسجد له..

فذهب الرجل ونفذ ما اتفق عليه.. فنهاه «قطرى» قائلا إنما السجود لله..

فرد الرجل.. لن أسجد إلا لك..

فأثار رد الرجل الفزع بينهم فقال واحد من الخوارج وهو يوجه حديثه «لقطرى» إنه قد عبدك من دون الله ثم تلا قول الله «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ» (الأنبياء ٩٨)..

فرد قطرى.. إن النصارى قد عبدوا المسيح عيسى بن مريم.. فما ضر عيسى ذلك شيئا.

وبكل ما يحملونه من اندفاع وتهور قام رجل من الخوارج إلى الرجل المسيحى فقتله.

فاعترض قطرى على ذلك.. واعترض مجموعة من الخوارج على اعتراض قطرى.

وعلم المهلب أن خطته فى شغلهم بأمور جدلية قد نجحت فى تفريقهم فزاد فى ذلك فهو كان يستعد لمقابلتهم فى حرب جديدة رأى أن يمزقهم بالخلاف والجدل

قبل موعد لقائهم.. وأراد أن يطرق الحديد وهو ساخن فأرسل إليهم رجلا آخر يطلب منهم العلم والفتوى ويلقى الفتن فيما بينهم فسألهم الرجل عن مصير رجلين تركا دار الكفر وقررا الهجرة إليهم فى دار الهجرة وفى الطريق مات أحدهما.. والثانى وصل إليهم وخضع للامتحان الذى وضعوه شرطا للانضمام إليهم ولم ينجح فيه.. فما مصير من مات فى الطريق.. وما مصير من رسب فى الامتحان.

وكما توقع المهلب دب الخلاف بينهم.. فقال بعضهم إن الذى مات فى طريقه إليهم هو من أهل الجنة وأن الذى رسب كافر حتى يجتاز الامتحان.

وقال آخرون: إن الميت كافر وإن الراسب كافر.. فاختلفا بشدة حتى أن زعيمهم «قطرى» عجز عن أن يصلح بينهم فانتابه الغضب وتركهم يتصارعون فيما بينهم واعتزلهم لمدة شهر وهم على خلافاتهم الحادة وحاربهم المهلب تسعة عشر عاما.. وفى أثناء حربه لهم تولى الحجاج ولاية العراق فوضع تحت تصرف المهلب إيرادات فارس وكيرمان ونجح المهلب القائد الذكى القوى فى جعل الخلافات بينهم تصل إلى طريق مسدود فتمرد القواد على قطرى وخرج عبدربه الصغير الذى لم ينس أبدا خلافاته مع قطرى مع عدة آلاف من المقاتلين منفصلا عن «قطرى» وتبعه فى ذلك «عبدربه الكبير» منفصلا هو أيضا بعدة آلاف من المقاتلين واتجه كل واحد منهما فى اتجاه وبقى قطرى فى فارس فحاربه المهلب وهزمه ثم ذهب وراء عبدربه الكبير فهزمه وقتله وفى نفس الوقت أرسل ابنه خلف عبدربه الصغير فقتله وقضى على جيشه.

وهرب قطرى ومعه ما تبقى من جيشه إلى طبرستان فأرسل إليه الحجاج جيشا على رأسه قائده سفيان بن الأبرد الكلبى فقبض على من تبقى من جيش الأزارقة وقتل قطرى وأرسل رأسه إلى الحجاج لينتهى الأزارقة.. أئمة التكفير فى الإسلام وواضعو بذرة الفرقة والشقاق بين المسلمين وذهبوا وتركوا لنا أفكارهم التى مازالت تطل برأسها بين الحين والآخر لتثير الفتن والقلاقل بين المسلمين.

ولم يأت أحد من بعد الأزارقة من الخوارج فى قسوتهم وشدة تطرفهم وغلوهم فقد تفرق الخوارج بعد ذلك إلى النجدات وهم أتباع نجدة بن عويمر ونجحوا فى

الاستيلاء على حضرموت واليمن والطائف وكانوا يختلفون مع الأزارقة فى تكفير من لم يخرج معهم أو يهاجر لديهم ورفضوا استحلال قتل الأطفال ورأوا أن إقامة إمام ليست واجبا شرعيا وأن المسلمين إذا استطاعوا أن يقيموا العدل فيما بينهم فليس هناك حاجة لوجود الإمام واعتنقوا أيضا مبدأ (التقية) وأعطوا الحق للخارجى أن يخفى انتماءه إلى الخوارج بل ويعلن أنه من أتباع أهل السنة حتى يحافظ على حياته وماله.

وككل أحزاب الخوارج كان للنجدات شطحاتهم فقد أسقط حد الخمر وحكم على من كذب كذبة صغيرة وأصر عليها بأنه مشرك.. أما من زنا وسرق وشرب الخمر غير مصر على ما فعله فإنه مسلم ولم تمر فتاوى وآراء نجدة الدينية مرور الكرام.. فوجد من يعارضه ويخرج عنه ويطلب منه أن يتوب عن آرائه التى عارضه فيها البعض وقالوا له (اخرج إلى المسجد وتب من أحداثك و"تعد توبة «نجدة» أعجب توبة فى تاريخ البشرية وستدلك الأحداث فيما بعد على ضحالة وسذاجة الخوارج.. فعندما طلبوا منه التوبة امتثل لهم وتاب.. ثم ندم معارضوه الذين طلبوا منه التوبة وشعروا أنهم قد تجرأوا على إمامهم.. فقالوا له أنت الإمام ولك الاجتهاد ولم يكن لنا الحق فى أن نطلب منك أن تتوب.. فلابد أن تتوب من توبتك وأن تستتب الذين استتابوك وإن لم تفعل ذلك.. تركناك وابتعدنا عنك وحاربناك..

فامتثل لهم «نجدة» وفعل ما أمروه به..

وكان أمرا طبيعيا أن يحمل أصحاب ذلك الفكر بذرة فنائهم بداخلهم فانقسموا إلى العديد من الأحزاب والتنظيمات واصابهم.. الفناء ونبذهم التاريخ وضاعوا فى متاهاته بعد أن انقسموا على أنفسهم وحاربوا غيرهم واقتتلوا فيما بينهم وتفرقوا إلى فرق صغيرة متناثرة فأصبح هناك الصفرية وهم أتباع زياد بن الأصفر والعجاردة وهم أتباع عبدالكريم بن عجرد الذى تفرق أتباعه إلى عدة أحزاب منها الحازمية والشبيبة والخلفية والحمزية والصليتة والميمونية التى كانت أكثر الأحزاب تطرفا وهم أتباع ميمون العجردى الذى قال إن القدر خيره وشره من العبد وقد أباح زواج بنات البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات وقال إن الله تعالى

حرم نكاح البنت وبنات الإخوة والأخوات.. ولم يحرم نكاح بنات البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات وقال إن القرآن لم يذكرهن من المحرمات وزاد على ذلك أنه أنكر سورة يوسف ولم يعدها من القرآن لأنها فى زعمهم قصة غرام ولا يصح أن تضاف إلى الله.

ومن العجاردة انشقت الثعالبة التى تنسب إلى ثعلبة بن عامر وكان من أمراء عبدالكريم بن عجرد وخالفه وخرج عنه وانشق عنه هو أيضا أحزاب جديدة تسموا بالأخشية والمعيدية والرشيدية والشيبانية والمكرمية والمعلومية والمجهولية والبدعية.

وتبقى من الخوارج الأباضية.. وتنسب نشأتها إلى عبدالله بن أباض التميمى وهم الفرقة الوحيدة التى مازال لها أتباع حتى الآن وينتشرون فى عمان وشمال أفريقيا ورغم أصولهم الخارجية إلا أنهم يتفقون مع أهل السنة فى كثير من الأمور.. ولديهم كثير من العلماء ورواة الحديث ويصفون من هم خارجهم بأنهم ليسوا بمؤمنين أو مشركين ولكنهم كفار وأجازوا شهادتهم وحرموا دماءهم ويقولون إن من دخل النار فهو خالد فيها والمذنب تطهره التوبة ولا يدخل السعيد النار واختلفوا فى النفاق وهل هو مشرك أم لا وقالوا: يجوز أن يخلق الله تعالى رسولا بلا دليل ويكلف العباد بما أوصى إليه ولا يجب عليه إظهار المعجزة ولا يجب على الله تعالى ذلك إلى أن يخلق دليلا ويظهر معجزة، وتوقفوا فى الحكم على أطفال المشركين وإن أقروا تعذيبهم على سبيل الانتقام وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلا.

وكعادة الخوارج لم يسلم الأباضية من الانقسامات.. فنالوا نصيبهم هم أيضا من أفكارهم ومعتقداتهم وتفرقوا إلى الحفصية والحارثية واليزيدية وهم من أتباع يزيد بن ابنه وكان من أهل البصرة ثم رحل إلى فارس ثم ابتدع قولا زاد به على معتقدات الأباضية من الخوارج فزعم أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا قد كتب فى السماء وينزل عليه جملة واحدة ويترك شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وزعم أن أتباع ذلك النبى المنتظر هم الصابئون المذكورون فى القرآن.

ومثلما ظهر الخوارج فى وقت شديد الحساسية فى تاريخ الإسلام السياسى.. غابوا أيضا عن المسرح السياسى والدينى والاجتماعى بعد أن وضعوا لأنفسهم بذرة فنائهم بما اقترفوه فهم أصحاب مذهب سياسى غير قابل للتطبيق ابتدعوا التكفير وانتهجوا التحريض ضد من خالف أفكارهم وعقيدتهم المنافية للمبادئ الإسلامية وطواهم التاريخ بين صفحاته تاركين لنا أفكارا تجد المناخ الملائم لتنمو فيه أحيانا ومازال العالم يضج بفكر كثير من الجماعات المسلحة الإسلامية التى ترفض غيرها وتكفر من لا يعتنق أفكارها وتسفك دماء المسلمين قبل أصحاب الديانات الأخرى.. ومازالت الأحداث التى مرت بها مصر حاضرة فى الأذهان بعد عودة فكر الخوارج على أيدى جماعة التكفير والهجرة وزعيمها شكرى مصطفى.. فالأشخاص يفنون.. أما الأفكار فتظل باقية مادام العالم موجودا. فالفكر يقاوم الموت والحياة.